انفتاح المفاهيم الفلسفية والدينية على الأدب

د. علي منصوري
جامعة الحاج لخضر - باتنة

الملخص:

تهدف هذه المقاربة إلى إظهار مدى التشابه والتقارب الحاصل في الوقائع لدى المجتمعات الإنسانية الأولى، وهذا ما أدى إلى تماثل الأفكار والمعرفة.

إن الأسطورة والفلسفة والدين ساهمت –إلى حد ما– في ظهور مفاهيم وأنماط تفكير وأساليب تعبير، ليتردد صداها في الآداب الكلاسيكية والمعاصرة.

Abstract

This approach referred to show the range of similarity and reconciliation at human societies, which led to the resemblance in ideas and knowledge.

The myth, philosophy and religion have contributed to the appearance of some of the concepts and patterns of thinking and methods of expression, which repeated in modern Literature.

مقدمة:

على امتداد مسيرة الإنسان الطويلة وكفاحه الشاق من أجل الانسلاخ عن الطبيعة بل ومقاومتها والتغلب عليها، وعبر فرحته الأولى بالاكتشاف ونشوة الانتصار والإحساس بالتفرد والتميز عن الحيوان حيث أكسبته تطلعاته وحاجاته- التي تعدت مجرد الاستجابة الأولية للحاجات البيولوجية- شخصيته الإنسانية المتميزة، طرح الإنسان البدائي تساؤلاته وحيراته إزاء جملة من الظواهر التي صاحبت ظهور الإنسان على الأرض، وقد عبر الإنسان عن هذه الظواهر على نحو رمزي يكشف ما في نفس الإنسان من طموح وتطلعاته ومخاوف وقلق، واخذ هذا الطموح وهذه المخاوف شكل أساطير وطقوس ومعتقدات.

الإشكالية:

تتمحور إشكالية هذا البحث حول هذا التقارب العجيب الملاحظ في أساطير الأمم وفلسفاتها ودياناتها ومن ثم يجد تجسيده في الأدب، فيم يتمثل هذا التقارب؟ وكيف يتمثل؟ كيف تم تجسيده في معتقدات هذه الأمم ومن ثم في أدبها؟ كيف وظفت الفلسفة والديانة الإسلامية مفهومها للبطل والبطولة؟.

المنهجية:

لعل أقرب منهج لهذا البحث - من خلال الإشكالية السابقة – هو المنهج الاجتماعي الذي يعتبر الأدب والفن ظاهرة اجتماعية تتفاعل مع ما هو سائد من نظم اجتماعية وسياسية واقتصادية التي تتبعها الفلسفة السائدة، ويعكسها الأدب والفن على اعتبار أنها الدلالة الاجتماعية؛ ومن ثم ارتباط مفهوم البطولة والبطل بالنمط الإنتاجي السائد، بمعنى أن كل مرحلة اقتصادية يقابلها نمط ثقافي سائد يحيل إلى مفهوم للبطولة والبطل يعبر عنه ويحمل طابعه الفكري والإيديولوجي.

مدخل:

يلاحظ دارسوا الأساطير أن ثمة تشابها عجيبا ودقيق بين أساطير أمة وأخرى، «بل بين القصص الشعبية عند الأمم المختلفة»[1].

ويذهب باحث آخر إلى التسليم بوجود تلازم بين الأساطير والحكاية الخرافية، وأن هذا التلازم أظهر ما يكون في التراث العربي الذي وجد في اليمن والعراق القديمين، «مما أدى إلى الاعتقاد أن يكون هذين الإقليمين وما بينهما مصدرا لأقدم صور التأليف الأدبي»[2].

يتبدد هذا الاعتقاد عندما يتوصل العلماء إلى الافتراض التالي وهو : أنه توجد لدى المجتمعات الإنسانية الأولى وقائع متشابهة وبالتالي لا يستبعد تماثل الأفكار عندها.

وتدل الأبحاث الحديثة التي عرضت للفكر المبكر للإنسان أن مدى التشابه في عمليات العقل البشري —هنا وهناك– «إنما يظهر في الأساطير خاصة الرمزية منها»[3].

وقد زخرت المسيرة الطويلة للإنسان بالأساطير والطقوس التي ترسب كثير من عناصرها في التراث الشعبي بحيث شكّلت هذه العناصر جذوره وأصوله.

«... وتمثل هذه الأساطير والطقوس المؤشر الدقيق لبداية الفنون والعلوم والأديان»[4].

ذلك أن الصورة الأولى لعلوم الإنسان البدائي وفنونه ودياناته انعكست من خلال الطقس والأسطورة لدى هذا الإنسان.

البطل الأسطوري :

إن الأسطورة في نظر الكثير من الباحثين إنما هي: «الجزء القولي المصاحب للطقوس البدائية»[5].

---

[1]– د.كري محمد عياد: البطل في الأدب والأساطير، دار المعرفة، ط02 فبراير 1971، ص75.

[2]– د.أحمد كمال زكي: الأساطير دراسة حضارية مقارنة، دار العودة، بيروت، ط02، 1979، ص65.

[3] – المرجع السابق، ص50.

[4]– صبري مسلم حمادي: أثر التراث الشعبي في الرواية العراقية الحديثة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط01 أفريل 1980، ص09.

وتتجه كثير من الدراسات الحديثة نحو إثبات فكرة وجود كائنات روحية خفية في مقابل ما هو كائن من الظواهر الطبيعية فيما يسمى بالأسطورة التعليلية، فنحن نجد "بطل" الأساطير يتعامل مع كائنات غريبة، هي مزيج من الإنسانية والحيوانية والألوهية في وقت واحد، بل نجده يتعامل مع قوى الطبيعية، التي تصوّر هي أيضا تصويرا حيويا، فالبحار والأنهار والأشجار العظيمة ليست مجرد أشكال من المادة، بل إن لها أرواحا، وهذه الأرواح هي- على الأرجح- ما سميت بعد بالآلهة- الأبطال أو الأبطال المؤلهون. فالبطل الأسطوري «الذي يحكى أو كان يحكي فعال إله أو ابن إله أو شبه إله قد مهد الطريق لبطل إنساني مهما أضيفت إليه من خوارق»[6].

والبطل الأسطوري رافق بداية الإنسان البدائي الذي أناط إليه مهمة الصراع مع القوى الإلهية نتيجة إحساسه بالضعف والعجز أمام الكون من حوله، فصاغ «مثالا ذهنيا يحقق له طموحه في السيطرة على هذا الكون»[7]، ومهما كان نوع البطل أو صفته :«بطلا عملاقا» يقف أمام العقبات ليقهرها كما يظهر ذلك في أدب الطور الأول المتقدم للنظام العبودي أو «بطلا أخلاقيا» كما أبدعه أدب الطور الأول المتقدم للنظام الإقطاعي، والذي كان يمثل المثل الأعلى الأخلاقي للحضارة الدينية.

وأبدع أدب الطور الأول المتقدم للنظام الرأسمالي نموذج «البطل الحر» الذي أكد قيمة الفرد وأعلى من شأن كرامته وحريته. هؤلاء الأبطال كانوا يمثلون (المثال العام) ذا الطابع الإنساني في مراحل الصعود الأولى[8].

---

[5]- د. شكري محمد عياد: البطل في الأدب والأساطير، مرجع سابق، ص85.

[6]- صبري مسلم حمادي: أثر التراث الشعبي في الرواية العراقية الحديثة، مرجع سابق، ص11.

[7]- المرجع السابق، ص12.

[8]- د.عبد المنعم تليمة: مقدمة في نظرية الأدب،دار العودة، بيروت، ط02، 1983، ص.ص62-63 وما بعدها.

يراجع أيضا كتاب:

Le héros aux mille et un visage, joseph Campbell, Edition Robert laffont, Paris, pp 251, 252, 253.

البطل في الفلسفة الماركسية:

وواضح من التقسيم السابق الاعتماد على فكرة مؤداها ارتباط (البطل) بالنمط الإنتاجي السائد، وحسب نفس التحليل فإن كل مرحلة اقتصادية يقابلها نمط ثقافي سائد، ويصبح بعدها لكل نمط ثقافي «بطل» يعبر عنه ويحمل طابعه الفكري والإيديولوجي.

«... وما دام البطل يولد من رحم المجتمع، بمعنى أنه انعكاس للواقع الاجتماعي، فهو بهذا المفهوم يعد خلقا اجتماعيا بحتا»[9].

ذلك أن الشعب في أزماته يريد البطل ليأخذ بيده «البطل المنقذ» ويوصله إلى بر الأمان.

ولقد يكون للبعض نوع من التحفظ على وجود البطل أساسا وبخاصة إذا وضع في الحسبان أن المجتمعات المتخلفة هي التي تحتاج أكثر من يغرها إلى الأبطال[10].

وهناك من الدارسين من ينكر وجود البطل تكريسا لعبقرية الشعوب، وخاصة الاتجاه الماركسي. أي أن الأبطال لم يكونوا إطلاقا ضروريين-حسب رأي بعض الفلاسفة- للقيام بالعمل الذي يحتاجه عالمهم، إذ يعتقد هؤلاء الفلاسفة بأن الاحتياجات الاجتماعية «تسد ذاتها بذاتها» بواسطة الحركات الجماهيرية، ففي رأيهم «أن الجماهير والطبقات كانت وحدها الأبطال»[11].

ومقياس عظمة «البطل» يكمن في درجة شعوره ووعيه بما دعي للقيام به، أي ما يمكن اصطلاح تسميته بـــ «الإنجازية».

---

[9]- أحمد إبراهيم الهواري: البطل المعاصر في الرواية المصرية، دار الحرية للطباعة، بغداد 1976، ص14.

[10]- د.أحمد كمال زكي: الأساطير دراسة مضاربة مقارنة، مرجع سابق، ص237.

[11]- سيدني هوك البطل في التاريخ، ترجمة مروان الجابري، مراجعة الدكتور أنيس فريحة، المؤسسة الأهلية للطباعة والنشر، ص ص65، 66.

وبديهي أن هذه «الإنجازية» تتم لأن «البطل» هو :«الشجاع: تبطل جراحته (جروحه) فلا يكترث لها. وهو «يبطل العظائم» أي يلغيها، أو أن الأشداء يبطلون عنده»[12].

ويحدد صاحب «القاموس المحيط «البطل» بأنه الشجاع أيضا ولكنه يضيف إلى ذلك تحليه بالصبر على الآلام فيقول: «تبطل جراحته فلا يكترث لها»[13].

البطل في المعاجم العبرية والعربية:

أما تحديد مفهوم «البطل» في المعاجم العبرية، فهو عند: «... ابن شوشان: القوي والشجاع، ويضيف: يهوداجور إلى ذلك بأن «البطل» هو رجل حرب يحقق النصر ويتغلب على الأعداء، وهو أيضا الشخص الذي يقوم بالأعمال الطيبة، ونجده عند: أوستار إسرائيل: فإلى جانب تحليه بالشجاعة والقوة فهو القادر على كبح جماح نفسه»[14].

ومما سبق يتضح اتفاق المعاجم العربية والعبرية على تحديد مفهوم البطل بأنه الشجاع، وإذا أضافت المعاجم العربية إليه صفة الصبر على الآلام فإن المعاجم العبرية تجعله أيضا الشخص الذي يقوم بالأعمال الطيبة، والقادر على كبح جماح نفسه[15].

ولنا في «أيوب» البطل الصابر خير مثال، إذ أن البطولة عنده من نوع خاص: إنها ليست بطولة الذراع بل بطولة الصبر على الآلام، كما خاض أيوب بينه وبين نفسه صراعا عنيفا حول الأسباب

---

[12]– د.علي زيعور: قطاع البطولة والنرجسية في الذات العربية، دار الطليعة، بيروت، ط01فيفري 1982، ص29.

[13]– الفيروز آبادي: مجد الدين ابن محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، الجزء الثالث 1952، القاهرة، ص346.

[14]– محمد محمود محمد أبو غدير: مفهوم البطولة في الرواية العبرية الحديثة، رسالة دكتوراه، مخطوط إشراف: الأستاذة. د.زكية محند رشدي، جامعة القاهرة، قسم اللغات الشرقية وآدابها، فرع الساميات، رقم الرسالة: 3608، ص ص33، 34.

[15]– للتوسع أكثر يراجع كتاب: قطاع البطولة والنرجسية، ص30 وما بعدها.

التي تجعله يواجه كل هذه الضربات رغم استقامته وصلاحه، «ولماذا يسمح الله للبار بأن يتألم»[16].

إن قصة أيوب «البطل الصابر» تعطينا صورة لأولى محاولة فلسفية جادة في التاريخ الإنساني لتحليل مشكلة الإنسان وتحديد علاقته بالكون وبالخالق.

وجدير بالملاحظة ما يقدمه هذا المثال من تحول شخصية «أيوب» وقصته اتخاذها أشكالا شعبية عديدة بل وأصبحت فكرة «أيوب» فكرة رئيسية في الأدب العالمي قديما وحديثا، وهذا يعني أن «أيوب» أصبح بطلا شعبيا عالميا تتكرر فكرته القائمة على الصبر في مواجهة المحن وهي إحدى تفسيرات البطولة في المعاجم المختلفة ودوائر المعارف.

ولا يخفى على أحد مدى تأثير مثل هذه المواضيع على الأدب وخاصة الرواية وبالضبط «بطلها» الذي لا يبتعد كثيرا في مفهومه عن الصفات التي يتسم بها «أيوب» وهكذا فإن القول الآتي يمكن أن ينطبق تماما على الصورتين السابقتين: «أعجب بالبطل الذي ينتقل من انتصار إلى انتصار، ولكني أعجب أكثر بذلك الذي يعرف مسبقا أنه سينهزم ولكنه يقاوم».

ولقد تنبهت اللغة العربية إلى معنى ثان للبطل فقالت:« إن البطلة هم السحرة، وبذلك يرتبط البطل بالسحر وفي هذا لقطة جيدة وتقريب مقبول معقول بين البطولة ومالها في النفوس، أو على الناس من فعالية سحرية وسلطة اعتبارية»[17].

ويذهب صاحب كتاب: «قطاع البطولة والنرجسية» بعيدا في تحليله للبطل في «الجذر اللغوي» في العربية. إذ نلاحظ ارتباط البطولة بالعظمة، وبتحدي عظائم الأمور، ولقد ربطت اللغة البطولة بإبطال أي إلغاء الشائع والمألوف والعمومي، نلحظ ذلك أيضا

---

[16]– محمد محمود محمد أبو غدير، مفهوم البطولة في الرواية العبرية الحديثة، مرجع سابق، ص ص87، 88.

[17]– د.علي زيعور: قطاع البطولة والنرجسية في الذات العربية، مرجع سابق، ص ص29، 30.

في المفردات التي تبدأ بالباء والطاء: بطأ، بطح، بطر، بطش، بط، بطل بطن، فالبطل يبطح، ويبطر أي يشق، ويبطش أي (يشق ويقطع)[18].

البطل في القاموس الفرنسي:

أما القاموس الفرنسي فيقول: «إن البطل نصفه إنسان ونصفه الآخر إله، وقد يكون شخصية أسطورية تتمتع بشجاعة فائقة، وتقوم بأعمال باهرة، وهو من منظور

اجتماعي إنسان يستحق كل تقدير وكل إكرام لقوة شخصيته وطباعه وعبقريته وإخلاصه الكلي لقضية مقدسة»[19].

ويذهب صاحب كتاب: «أسطورة البطل Mythe du Héros» إلى أن "Héros" "بطل": اسم نسب لشخصيات في أدب «هوميروس» تتمتع بشجاعة واستحقاق عال، مبجلين من طرف الآلهة، وعند «هيزيودوس» يطلق هذا الاسم للذين يولدون من إله وفانية أو من آلهة وفان.

ويطلق أيضا على الذين يتميزون بعمل غير عادي أو الحصول على نجاحات عسكرية خارقة.

- كل إنسان يتميز بقوة الشخصية وعظمة الروح، ومضاء العزيمة.
- مصطلح أدبي، شخصية رئيسية لقصيدة، رواية، أو مسرحية.
- بطل فكرة ما هو الذي يجذب إليه الأضواء الأحداث خيرها وشرها[20].
- عندما نطلق كلمة «بطل» على أحد فإننا ننتظر منه أن يعكس أصالة وإشعاعا، قوة ومضاء، أن ينعزل عن الدهماء والمجموع وعن العاديين.

---

[18]- المرجع السابق، ص30.

[19]- مجلة الفكر العربي المعاصر، مقال لـ: جوزيف شريم، مركز الإنماء القومي، بيروت، لبنان، العدد 34 ربيع 1985، ص118.

[20]- Philipe Sellier : le mythe du Héros, Bordas, Paris 1970, pp 13,14.

ملاحظة : إن "الباحث" هو الذي يقوم بترجمة الأفكار الواردة في المراجع المشار إليها في الهامش باللغة الفرنسية

- «وإلى هذا الحد لا يمكن اعتبار أحدهم بطلا إلا ذلك الذي رسمناه في أحلامنا، ذلك الذي يوفر لنا الرغبة في تجاوز حدود حياة لنصل إلى «الأعلى» ونغادر القاع، إلحاحنا على امتلاك أمرنا، ونريد كلنا أن نكون آلهة»[21].

- إن «بروميثيوس» كان يتحرق شوقا إلى الانعتاق والخلاص لامتلاك «المعرفة الإلهية» ليصير بها إلها[22].

إذ يعتبر الملك أو «البطل» أو النبي صورة عن المؤله[23].

ولعل صرخة «كاسيس كلاي»[24] تعيد إلى الأذهان ما يعبر عنه أحدهم بـــ: «الرغبة في الألوهية لدى الإنسان» «Le désir d'être dieu»

إذ وبعد خروجه من حلبة الملاكمة منتصرا، وبطلا للعالم، يصرخ رافعا يديه إلى السماء: «Im a god I am e real god»[25]. أنا إله، أنا حقا إله» ويظهر مما تقدم أن البطل هو نظير الإله يسعى إلى احتلال مركز الكون ولكنه يجابه بقوى كونية خفية تصدع وجوده.

ولقد كان للفكر اليوناني القديم فضل السبق في تحديد مفهوم البطل- في الأساطير والمسرح خاصة- ذلك أن هؤلاء الأبطال إليهم يرجع الفضل في تأسيس مدنية اليونان ونهضتهم في مختلف ميادين الحياة وتفوقهم على ما عداهم من الشعوب، وتنسب إليهم تأسيس المدن اليونانية، وحمايتها من الغارات الأجنبية، ومعظمهم من سلالة الآلهة، أو ممن يمتون إليهم بصلة قريبة، وقد حرص اليونان على تمجيدهم وتخليد ذكراهم فأقاموا لهم

---

[21]- المرجع السابق، ص14.

[22]- د.عبد المنعم تليمة: مقدمة في نظرية الأدب، مرجع سابق، ص68.

[23]- د.علي زيعور: قطاع البطولة والنرجسية، مرجع سابق، ص35.

[24]- تعمدت تسجيل الاسم الأصلي -الأول- لمحمد علي كلاي لأن الحادثة وقعت قبل أن يشهر إسلامه.

[25]- Philipe Selleir, le pythe du héros, op.cit, p 02.

التماثيل والمعابد وخصصوا لهم أعيادا دينية، وقدموا لهم القرابين تقربا إلى أرواحهم وخلدوا ذكراهم بالتأليف عنهم والترجمة لهم.

البطولة في الديانسة المسيحية:

في نفس السياق يرى البعض أن «المسيح عليه السلام» «إله» نزل على الأرض للقيام بمهمة إنسان»[26]، وعليه يصبح رمزا ومثالا يحتذى نقطة فنقطة.

الذات الإلهية هي مصداقية الأنا الموجودة في كل منا وبالتالي ألوهيتنا أي: «ألوهية الإنسان –البطل».

والدرس المستخلص من كل هذا، ليس هو : «اعمل هذا وكن خيرا» ولكن: «اعرف هذا وكن إلها»[27].

وهنا لا بد من الإشارة إلى أن المسيحية، خلافا لكل من الإسلام واليهودية، لم تشأ أن ترى بطلها (منقذها) إنسانا فرسمته على صورة البطل الأسطوري، «فجمعت فيه بين طبيعة الله وإرادته وجوهر الإنسان ومشيئته، وكما شفع آخيل أوجلجامش حقيقة الله بوجود الإنسان في كينونته، كذلك جمعت صورة عيسى، في ذهن المسيحية بين ماهيتي الله والإنسان»[28].

البطولة في الديانة الإسلامية:

إن المثل الأعلى للنموذج البطولي الإسلامي كان الرسول (ص) إذ أن فلاسفتنا أبقوا الأكملية في البشر للنبي (ص). البطل الذي تخيلته الفلسفة الإسلامية كان ينحت من شخص الرسول (ص) ومحاولة تمثله، ذلك أن ابن سينا يقول مثلا: «من اجتمعت له الفضائل ومعها الحكمة النظرية فقد سعد، ومن فاز مع ذلك بالخواص النبوية كاد أن يصير

---

[26]– Le héros aux mille et un visages, op.cit, pp254, 255.

[27]– المرجع السابق، ص55.

[28]– محمد مبارك، دراسات نقدية في النظرية والتطبيق، دار الحرية للطباعة، بغداد 1976، ص ص119–120.

ربا إنسانيا وكاد أن تحل عبادته بعد الله تعالى، وهو سلطان العالم الأرضي وخليفة الله فيه»[29].

ومن هنا تنعكس صورة الإنسان –البطل كما صورها القرآن الكريم والتي لا تعني الطعن والقتل واستعراض القوة الجسدية، ولكن البطولة هنا تميز إنسانا بصفات وأفكار ومعتقدات تعود بالنفع على البطل نفسه وعلى مجتمعه وعلى الإنسانية جمعاء.

«محمد (ص) بهذا المعنى «بطل إنساني» أتاحت شخصيته للكتاب كل السمات التي يبحثون عنها في أبطالهم، كانت معاركه انتصار لمبدأ، ودفاعا عن العقيدة، وصورة واقعية لأحلام أسطورية»[30]. وفي النبي تجسدت هذه الفضائل وتحققت النزعة البطولية المتكاملة، ولعل هذا كان أروع استلهام «فني» لشخص الرسول (ص)، ومن ثم صاغوا على منواله فن تشخيصهم للبطل.

فإذا هو «الرسول (ص)»: البطل المنتظر، البطل المنقذ، البطل الموعود.

فلقد قدم هذا الإنسان –البطل– إلى أمته وإلى الإنسانية جمعاء قيما روحية واجتماعية وسياسية «وضعها موضع التطبيق في حياته العملية»[31].

وقد تنبه المستشرق توماس كارليل إلى هذه البطولة الإنسانية في الرسول (ص) فقال: «كان في هؤلاء العرب جفاء وغلظة، وكانوا حماة الأنوف، أباة الضيم، صعاب الشكيمة، فمن قدر على رياضتهم وتذليل جانبهم حتى رضخوا له واستقادوا، فذلكم والله بطل كبير،

---

[29]– د.علي زيعور: قطاع البطولة والنرجسية، مرجع سابق، ص73.

[30]– محمد رجب النجار: البطل في الملاحم الشعبية العربية، قضاياه وملامحه الفنية، إشراف د.حسين نصار، دكتوراه مخطوط، جامعة القاهرة، كلية الآداب، قسم الرسائل الجامعية، رقم الرسالة 1879، ص835.

[31]– عدنان سكيك: الشخصية الإنسانية كما صورها القرآن الكريم وانعكاس مثلها على صورة البطل في الأدب العربي، إشراف الدكتور شكري محمد عياد، رسالة دكتوراه، مخطوط، جامعة القاهرة، كلية الآداب، قسم اللغة العربية، قسم الرسائل الجامعية، رقم الرسالة 868، ص208.

ولولا ما أبصروا فيه من آيات النبي والفضل لما خضعوا له وكيف وقد كانوا له أطوع من بنانه»[32].

والمؤسف أن القارئ لأي من القصص الشعبي البطولي يجد صراعا بطوليا دمويا يصور قوة البطل وبأسه وتقننه في إزهاق النفوس ولكنه لا يجد الأبعاد الإنسانية إلا في أضيق الحدود كما رسمها الإسلام وكما كان ممثلة في شخص الرسول (ص).

وحتى أدب عصر النهضة والعصر الحديث فقد جاء أبطاله صورة طبق الأصل لأبطال الغرب، إذ أن الكتاب المحدثين اعتنقوا الفلسفات والنظريات والاتجاهات الأدبية والاجتماعية فأبدعوا عشرات القصص والروايات والمسرحيات، ولكن الخلفية الحضارية والمفاهيم الفكرية لأبطالها مفاهيم غربية لا تتمثل المثل الأعلى الإسلامي، «إذ القيم الإسلامية معدومة إما جهلا بها أو زهدا فيها لاقتناعهم بأنها تعبر عن مفاهيم رجعية لا تصلح للعصر الحديث»[33].

وللباحث أن يتساءل، هل إن عزوف الكتاب عن تمثل هذه القيم يعود فقط إلى الافتراض السابق أم إلى سبب آخر؟

إن الجانب النظري لظاهرة البطولة في المثل الأعلى «الرسولي-الإسلامي» لم يرق إلى التصور العام للكلية الفنية بحيث يجيب على بعض المفاهيم الغامضة من مثل: طبيعة البطل ووظيفته، مقومات البطولة، وهكذا؟!

والأعمال الأدبية التي تستوحي التراث الإسلامي محدودة تقف على رأسها «عبقريات العقاد»، و«الوعد الحق» للدكتور طه حسين، ومسرحية «محمد» للحكيم هذا في النثر أما في الشعر فإن القصائد كثيرة ولكنها من الناحية الفنية مقصرة.

---

[32]- نقلت رأي توماس كارليل من المرجع السابق لعدم توفر المصدر الأصلي بحوزتي.

[33]- المرجع السابق، ص233.

«والغريب أن هذه الأعمال يكمل بعضها بعضا، فالحكيم يبرز الرسول –البطل والعقاد يبرز بطولة وعبقرية من جاء بعده من الخلفاء والدكتور طه حسين يتابع بطولة المستضعفين من المسلمين[34].

إن الرجل العظيم «البطل» هو استجابة ضرورية لحاجة اجتماعية وفق افتراض «انجلز»[35].

ولكن كيف يعرف «إنجلز» حتى عندما تنشأ حاجة اجتماعية عظمى وملحة أن رجلا عظيما لا بد أن يبرز لمعالجتها؟ ومن يضمن هذا الحدث؟

إن ما يضمن وجوده ليس القدرة الإلهية التي يقول بها: أوغسطين وبوسويه ولا دهاء العقل الذي يقول به «هيجل» وليس «المستعصي على الإدراك» الذي يقول به «سبنسر» ولكنه «التناقض المنطقي الجدلي بين قوى الإنتاج وعلاقات الإنتاج»[36].

ومهما يكن من نظريات مختلفة تتناول فكرة «البطل» وظروف ظهوره أو اختفائه أو الحاجة إليه والاستغناء عنه فإن هذه النظريات تنظر إلى ما يسميه الدكتور: واسيني الأعرج بـــ: «الإنجاز البطولي»[37]. ويظهر ذلك واضحا في القدرة البشرية على الخلق.

إن نموذجية البطل لا تنبع قط من أعماله البطولية، ولكن من النداء التي يوجه لنا هذا لا بطل ذاته، إذ أن البطل لا يواجه المصير الحياتي للشهرة ولكن بطولته ضرورية للتطور البشري أي «قدرته في إتيان الفعل المغير دون غيره، وتجربته الفردية هذه لا يمكن رؤيتها خارج سياقها الاجتماعية...»[38].

---

[34]– المرجع السابق، ص235.

[35]– سيدني هوك البطل في التاريخ، مرجع سابق، ص84 وما بعدها.

[36]– المرجع السابق، ص85.

[37]– د.وسيني الأعرج، جريدة المساء، أبطل شرط الفعل الروائي، الأحد 16 أوت 1987.

[38] – المرجع السابق.

ولنا بعد ذلك أن نلاحظ هذه الجدلية بين الفرد- البطل والمجموع أو الجماعة، فالبطل لا يعبر عن تجربة ذاتية صرفة بل عن تجربة عامة أو عن «الإنسان الكلي».

«يموت البطل فتبقى الجماعة»[39]، ويقاتل فتفرح وترتاح وتستمر، إنه يقوم بالعمل الذي يوده كل فرد، وبذلك تظهر هنا علاقة جدلية حية يستمد منها المستهلكون نصيبهم للحياة والخلود.

لأن المستهلك الأساسي للبطل هو «الجمهور» والمتغذي الرئيسي بمنتوجات البطولة.

لا يخلد البطل إلا إذا أراده الجمهور، فهناك بين البطل ومستهلكيه أرض مشتركة واتفاق وتوافق في النفسية والسلوك والأماني والأهداف، لأننا نحن الذين «نخلق بطلنا، ونحن نفتش دائما عن بطل يعوض نقصنا، ويحقق أمانينا، ويبلسم الإنجراحات والإخفاقات كي نستطيع حل الصراع الداخلي ثم توكيد الذات، أو كي ستطيع الجماعة توكيد نفسها. نتذوت فيه فنتعش، أو ننتقم، أو نحارب، أو ما إلى ذلك من نشاطات نتمناها ولا نستطيع مزاولتها فعليا»[40].

والموضوعية تقتضي منا أن نصرح بأننا نفرح لأن «البطل» يقتل ويمزق الصفوف، ونصغي بشغف له ووله لكيفية قتله الخصوم، لأنه بطلنا المحبوب، هو هنا يقاتل عنا، يفرج عن رغبات عدائية عندنا مكبوتة، فنحن نعجب بالبطل «المحتال» أو ما إلى ذلك لأنه يحقق تلك الرغبة الهاجعة عندنا، لا نستطيع تحقيقها بشكل صريح فنجد إشباعها في التماهي الذي يمثلها والذي يثور أو يقمع أو يسرق أو يقتل أو يحتال، وهناك عواطف عندنا حبيسة نستهلكها أو نشبعها في استهلاك القصص البطولية اللاأخلاقية تارة والضد/مجتمعية أو الضد/ عائلية أحيانا أخرى.

---

[39]- د. علي زيعور قطاع البطولة والنرجسية، مرجع سابق، ص34.

[40]- د. علي زيعور: قطاع البطولة والنرجسية، مرجع سابق، ص36.

- انظر أيضا مجلة الحياة الثقافية، تونس السنة 06، جانفي-فيفري1989، ص ص 18، 19.

ويمكن للباحث هنا أن يلاحظ أن القصة والخرافة والأسطورة شيد بناؤها على استحالة الفعل الواقعي، الحسي الحي. وأتى الفعل القصصي امتصاصا لشعور الإحباط إزاء الهزيمة والموت، أو إزاء الفعل الواقعي المنقوص أو المستحيل.

«... ثم كان تذاوت وتماثل وتماهي كل من القاص والكاتب والسامع والقارئ مع شخصيات القصة والخرافة والأسطورة وخصوصا مع بطلها محاولة لإعادة صياغة الوجود»[41]. بشكل قصص محكي محاولة للتعويض والحفز.

وهي في الوقت نفسه استمرار للصراع القائم بشكل من الأشكال بين كل القوى والمسببات التي تحرك البطل كفاعل للفعل إزاء مواجهة مصيره ومصير الآخرين في القصة «الحكاية» وفي الخارج.

وأكبر الظن أن كل مجتمع محتاج إلى هذا البطل الذي تحكي عنه الأساطير والحكايات، «لأنها تراه من ناحية الصورة الرائعة التي تريدها لنفسها في انتظام حلقات الوجود الإنساني، ولأنها من ناحية أخرى تحس أنه جزء من تاريخها وأملها المنشود، وهي تغفر له بالضرورة استجابته لصوت قدره، إلا أن حزنها عليه- حين يسقط ميتا- لا يصل إلى حد الجزع، لأن فاجعته لم تصبه من الخارج وإنما هي من عمله الذي تباركه»[42].

وواضح هنا أن الكاتب يقصد بـ «السقطة»، السقطة التراجيدية التي تحدث عنها «أرسطو» في كتابه «فن الشعر».

والحديث عن «موت البطل» يقودنا إلى الحديث عن سيرورة الأحداث التي لا تنتهي عندما «لا يموت البطل» ومعناه أيضا، قدرة الإنسان على مواجهة الأقدار والآلهة والشياطين والقوى الخارقة وقوى الشر.

البطل الرمز:

---

[41]- مشهور مصطفى: كيف نرى إلى البطل المعاصر من خلال ألف ليلة وليلة، مجلة الفكر العربي المعاصر، مركز الإنماء القومي، بيروت، لبنان، العدد34 ربيع 1985، ص88.

[42]- د.أحمد كمال زكي: الأساطير دراسة حضارية مقارنة، مرجع سابق، ص244.

«إن الجماعات والشعوب لا تريد أبدا أن يموت البطل إنها تريد لهذا «الرمز» أن يبقى يصارع الموت، آلهة الشر، الآفات الاقتصادية والاجتماعية، إنها تريده أن يحيا، يتوالد، يستمر، فإن قبلته ميتا في نهاية المطاف فعلى الرغم منها، وإن أرادته ميتا فليقذها ويبقى «الرمز»[43].

البطل–الرمز–حالة غير ملموسة وغير حسية وغير واقعية إنه الصورة المثلى والدرجة القصوى لمسيرة ما في حياة الجماعات والشعوب، فعلى مستوى الواقع كل شخص يحقق درجة يقترب من الرمز، وكلما كان عاديا ابتعد عنه.

ولأن –الرمز– صورة ومفهوم ومثال وشيء ما مجرد «ندركه بالفكر والخيال في الدرجة الأمثل، فعلى الشخص والشخصية اللذين يودان أن يكوناه، أن يصبحا في اللامحسوس واللامعقول: أن يبقيا قوة خفية لها هالتها، كما الإله، كما الشهيد، كما البطل»[44].

الذي ينتحر من أجل الجماعة فيموت من أجلها، ليس بحاجة لإسقاطات الجماعة، ولد بطلا منذ انتحر من أجلها، فأصبح بعدها رمزا. البطل يموت ليحيا، يموت لتبقى الجماعة تذكره في الذاكرة كرمز: إنه رمز يبقى[45].

ومن جهة أخرى يظهر البطل كرمز وحمال للأمل الشعبي بالخلاص وكمساعد وهمي على التحقق وإعادة التوازن للذات الفردية المنجرحة، وتظهر سعادة البطل في تأمينه لسعادة قومه، وحمايتهم والعطف عليهم، لا في خلاصه الفردي وسعادته الذاتية. وحديثا فإن: البطل عبد الناصر– حسب الصورة الشعبية له– يعكس الإيثار والتضحية وخدمة الجماعة، كان يحمل الأماني والتقدم والوحدة والتحرر.

---

[43]– مجلة الفكر العربي المعاصر، العدد34، مرجع سابق، ص94.

[44]– المرجع السابق، ص94.

[45]– المرجع السابق، ص94.

ولقد كان رمزا لكل هذه الأماني والآمال السابقة في نظر كثير من أفراد الشعب المصري والعربي، فبعد موته «الدرامي» اتخذه الأدباء دليلا على أن الخرافة والأساطير والتاريخ لا يزال يقوم بعملية ربط بالماضي العظيم، ففي أشعارهم حول الشعراء والكتاب – البطل- إلى شخصية بطولية خارقة (أسطورية-ملحمية-تراجيدية) كل حسب نظرته إلى الموقف.

تقول فيه فدوى طوقان:

حضن الرماد نقيضه

مشت الحقول إلى الحقول

لا.. ليس من عصر الأفول

هو ساعة الهتك العظيم أتت وخلخلت العقول![46].

ومحصلة المعنى، البطل الذي يخلقه الوجود، وفي موته يستمر الوجود برغم القوانين المعاكسة والأضداد.

ولقد ظهر «جمال عبد الناصر» في جزء كبير من أشعار العرب المحدثين بطلا شبيها بأبطال التراجيديات، في تكوينهم وسلوكهم، وفي أسلوب تفكيرهم المبني على الشعور بالتفوق

يقول في موته سميح قاسم:

يا موت يا ابن الشمس والأعياد

وجهي إلى كل جهات الأرض

وصية الميلاد ملء جبهتي

ملء فمي ورئتي

والعفو إن سال دمي... سال على الأوتار[47].

---

[46]- د.أحمد كمال زكي: دراسات حضارية مقارنة، مرجع سابق، ص239.

[47]- المرجع السابق، ص241.

وواضح مدى رمزية الأبيات في تحليل الموقف (الموت) فربما يكون موته (البطل، الزعيم، الريّس) شهادة على ميلاد الآخرين.

أبكيك في المنازل الشعبية
في السد والغيطان... في المدارس الريفية
في الكتب والساحات
أبكيك في الفلال
في الحدائق
أبكيك في الخنادق
أبكيك في الفؤوس والمطارق
في خوذة العامل والجندي
في كوفية الفلاح والعقال
أبكيك في قلانس الأحبار ...
في عمائم الأئمة
أبكيك يا جمال! [48].

ويقول صالح جودت:

وتمثلت مسيحا صاعدا
أفما كان مسيح الزعماء
يحمل الآلام عنهم... ويرى
أنه الفادي إذا عز الفداء[49].

فالبطل هنا مسيحا وأبا رحيما لكل الفقراء وشقيقا كبيرا للمجتمع.

وبإمكاننا الآن أن نقول إن الإنسان يحاول أن يجعل من نفسه صورة عن البطل (التمثل)، إننا نتمثل البطولة وبعبارة أخرى يمكننا أن نقول: إن ما نرسمه للبطل هو ما نوده

[48]- المرجع السابق، ص242.
[49]- المرجع السابق، ص255.

لأنفسنا، وما نطلبه إن يكون فينا، فالبطل هو الصورة التي تريدها الذات للذات، إنه تجسيد أحلام. وتجسيد التطلعات إلى الخلاص، «إن مادة البطل موجودة في نفوسنا، وهو فعلنا الإرادي واللاإرادي، الواعي واللاواعي...البطل قيمة وصورة كاملة تمتص المشاعر المثالية التي عرفتها الإنسانية ... إنه ينبئ في الآن عينه عن واقع جارح، عن سلطة قامعة أو لقمة غير سائغة ويأتي «البطل» بعد ذلك توكيدا للأمن، للذات للنحن»[50].

البطل صورة للإنسان المطلوب والمجتمع المرغوب:

مما تقدم يتضح أن «البطل» في النهاية هو صورة لإنسان المطلوب والمجتمع المرغوب، وللظاهرة البطولية جانب آخر إنها تؤمن تماسك المجتمع في الأزمان العصيبة، فالبطل يعزز اللحمة بين الأفراد إذ هو يغذى الجماعة ككل، وبذلك يوحدها ويقيم الانسجام، بل ويؤمن الوعي الفردي نحو هدف مشترك عام يقبله الجميع.

إن أبطال أمة هم موحدوا ثقافتها (أبطال اليونان صانعوا المدنية والحضارة) وهم الذين يعطون لونا مشتركا عاما لمجموعات من السلوكات والتفكير.

الأبطال ركائز مهمة في تراث الأمم ودعائم في التقاليد الاجتماعية وفي الوجدان الأخلاقي والأنا، الأعلى للجماعة»[51].

إن –البطل– وهو يسعى نحو هدفه لتحقيق أمنه وأمن الجماعة أو للظفر بـ: «يد الأميرة»[52]. أو تعويضا من نوع آخر كمكافأة مالية.

مما تقدم نستنتج أن البطل في الحياة الاجتماعية (في الواقع) كما في الحكاية والنص الأدبي عموما يتحرك ضمن إطار وسياق الواقع المعيشي أو النص الأدبي، ومن ثم فإن «تحديد البطل ليس ككائن بل كمشترك»[53].

---

[50]– د.علي زيغور، قطاع البطولة والنرجسية، مرجع سابق، ص ص35، 36.

[51]– المرجع السابق، ص ص36، 37.

[52]– سمير المرزوقي، جميل شاكر، مدخل إلى نظرية القصة، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر، الدار التونسية للنشر، الطبعة الأولى، ص55. وما قبلها يشريه الكاتبان العناصر الأساسية المكونة للحكاية عند بروب وهي ثلاثون عنصرا.

تسود العلاقات «البشرية» على مستوى الأفراد والجماعات والأوطان حالة من النزاع الدائم وقد نستطيع أن نقول: إن انعدام النزاع أمر غير طبيعي، ولا يمكن أن يستمر طويلا.

ثم إن الإنسان يتذوق تلقائيا وبطريقة –سادية/ مازوشية– مشاهد العراك والقمع والتضحية والقتل وما ينتج عنها من قصص.

يحاول «كلود ليفي شتراوس» الذي تحدث عن «البنية الأساسية» للسرد القصصي بصفة عامة أن يلخص هذه الظاهرة في الآتي:

«ينقل القصص غالبا تفاصيل «حالة متعثرة» تصبح «نزاعية» «Situation conflicteulle» وتتحول إلى «فاجعة» مؤلمة[54] «Catastroph» لأن البطل «يبحث عن الفاجعة» الكارثة، الفاجعة جزء لا يتجزأ من البطل»[55]، «سيزار» يبحث عن «بريتيس»، «نابليون» عن «سانت إيلان»، «هرقل» عن «القميص»، «أشيل» عن «إخمصه» وهكذا...

ويظهر هذا كأنه «قانون بطولي» يسير على الشكل التالي: كائنان متفاوتان مجتمعان مؤقتا يحددان الثنائية التي يجب اختزالها بإقصاء الأضعف.

إن للنزاع أصولا ومبادئ إذ أن أساسه نزاع بين ثنائية الموت والحياة على أن تختزل هذه الثنائية إلى أن تصل إلى «الأنا والآخر» الفشل والنجاح، الهزيمة والانتصار، أما أسباب النزاع فلا حصر لها نذكر منها على سبيل المثال: الثروة، القدرة، اللذة، الحب، السلطة.

---

[53]– جوزيف شريم: الكمنجا البطلة ي "لقاء" مجلة الفكر العربي المعاصر، العدد 34، مرجع سابق، ص199.

[54]– Roland BOURNEUF et Real OUELLET : L'univers des Romans, presses Universitaires de France, 4eme Edition, janvier 1985, pp 160,161.

[55] – Roland Barthes et Autres : Poétique du Récit, Edition du seuil,, 1977, p178.

ثم إن العدد الأكبر من القصص –انطلاقا من الأساطير القديمة وحتى الروايات الحديثة– ينقل تفاصيل عراك يتسبب به نزاع تمهيدي، والظاهر أن العراك لا يملأ كل لحظات السرد القصصي، فنحن نكتشف فيه تناوبا غريبا لأوقات الاتساع وأوقات الانحسار، يشبه تناوب النصر والهزيمة الذين يتميز بهما كل عراك. وإذن لا بد لجدلية العراك هذه أن تؤدي في النتيجة إلى «التصفية».

فنحن نشعر باللذة المأساوية منذ بداية اسرد القصصي لأننا نتوقع أن تذوب الثنائية ويزول الشقاق بين الكائنات بفضل تصفية نهائية، سواء كان مبررها أخلاقيا أم اجتماعيا ودينيا أو إيديولوجيا، وتشكل هذه «التصفية» التي تطال بطلا واحدا أو حدة أبطال الموضوع العام لكل قصص العالم.

بحيث تغدو الشخوص الأسطورية والملحمية أو التراجيدية، أو الروائية البطولية في النهاية شخوصا فنية تحددها قيم الجماعة ومعاييرها ومثلها العليا.

غير انه ينبغي أن نشير إلى أن «التشخيص الفني» للأبطال المأخوذ من الحياة بكل ما فيها من تناقضات عملية معقدة، إذ أنه «يعرف بداهة، أن خيال الفنان–مهما اتسعت آفاقه– فإنه لا ينحت شخوصه من الخيال المطلق»[56]، لأن الكتاب يضعون نصب أعينهم عن وعي «المثل الأعلى» للثقافة السائدة ولأن «المجتمع يفرض نوع الأدب وقيمته، كما يفرض نوع بطله»[57].

---

[56]– محمد رجب النجار: البطل في الملاحم الشعبية العربية، قضاياه وملامحه الفنية، دكتورا مخطوط، مرجع سابق، ص833.

[57]– عبد الخالق صالح محفوظ: علاقة البطل الأدبي بالمجتمع، جريدة تشريق السورية، السبت 16 أوت 1984، العدد 1978.

وعملية نقل الواقع الفج إلى الأدب عملية صعبة ومعقدة وقديمة «بدأت بالأسطورة البابلية: جلجامش-انكيدوا) إلى الرواية البوليسية مرورا بالملاحم اليونانية، توفر المجال واسعا لتحديد خصائص البطل، وبعدها يمكن تتبع تطور هذا البطل»[58].

فمهمة الكاتب تكمن في قدرته على تحويل الحياتي إلى إبداعي «بدون أن يفقده ذلك خاصيته الواقعية وبدون أن يكون كذلك صورة سلبية لهذا الواقع ذاته، ودراسة «البطل» ضمن هذه السياقات تعني بكل وضوح البحث عن مدى توفر القدرة لدى الكاتب على خلق نموذجه الأدبي»[59].

المراجع باللغة العربية:

1- د.كري محمد عياد: البطل في الأدب والأساطير، دار المعرفة، ط02 فبراير 1971.

2- د.أحمد كمال زكي: الأساطير دراسة حضارية مقارنة، دار العودة، بيروت، ط02، 1979.

3- صبري مسلم حمادي: أثر التراث الشعبي في الرواية العراقية الحديثة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط01 أفريل 1980.

4- د.عبد المنعم تليمة: مقدمة في نظرية الأدب، دار العودة، بيروت، ط02، 1983.

5- أحمد إبراهيم الهواري: البطل المعاصر في الرواية المصرية، دار الحرية للطباعة، بغداد 1976.

سيدني هوك البطل في التاريخ، ترجمة مروان الجابري، مراجعة الدكتور أنيس فريحة، المؤسسة الأهلية للطباعة والنشر.

6- د.علي زيعور: قطاع البطولة والنرجسية في الذات العربية، دار الطليعة، بيروت، ط01 فيفري 1982.

7- الفيروز آبادي: مجد الدين ابن محمد بن يعقوب، القاموس المحيط، الجزء الثالث 1952، القاهرة.

[58]- Philipe SELLIER, Le mythe du héros, op.cit, p14.

[59]- د.واسيني لعرج: البطل شرط الفعل الروائي، جريدة المساء (الجزء الخامس) الأحد 16 أوت 1987.

8- محمد محمود محمد أبو غدير: مفهوم البطولة في الرواية العبرية الحديثة، رسالة دكتوراه، مخطوط إشراف: الأستاذة. د.زكية محند رشدي، جامعة القاهرة، قسم اللغات الشرقية وآدابها، فرع الساميات، رقم الرسالة: 3608.

9- مجلة الفكر العربي المعاصر، مقال لـ: جوزيف شريم، مركز الإنماء القومي، بيروت، لبنان، العدد 34 ربيع 1985.

10- محمد مبارك، دراسات نقدية في النظرية والتطبيق، دار الحرية للطباعة، بغداد 1976.

11- محمد رجب النجار: البطل في الملاحم الشعبية العربية، قضاياه وملامحه الفنية، إشراف د.حسين نصار، دكتوراه 12- مخطوط، جامعة القاهرة، كلية الآداب، قسم الرسائل الجامعية، رقم الرسالة 1879.

13- عدنان سكيك: الشخصية الإنسانية كما صورها القرآن الكريم وانعكاس مثلها على صورة البطل في الأدب العربي، إشراف الدكتور شكري محمد عياد، رسالة دكتوراه، مخطوط، جامعة القاهرة، كلية الآداب، قسم اللغة العربية، قسم الرسائل الجامعية، رقم الرسالة 868.

14- د.وسيني الأعرج، جريدة المساء، البطل شرط الفعل الروائي، الأحد 16 أوت 1987.

15- مجلة الحياة الثقافية، تونس السنة 06، جانفي-فيفري 1989.

16- مشهور مصطفى: كيف نرى إلى البطل المعاصر من خلال ألف ليلة وليلة، مجلة الفكر العربي المعاصر، مركز الإنماء القومي، بيروت، لبنان، العدد 34 ربيع 1985.

17- سمير المرزوقي، جميل شاكر، مدخل إلى نظرية القصة، ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر، الدار التونسية للنشر، الطبعة الأولى

18- عبد الخالق صالح محفوظ: علاقة البطل الأدبي بالمجتمع، جريدة تشريق السورية، السبت 16 أوت 1984، العدد 1978.

المراجع باللغة الفرنسية

- Le héros aux mille et un visage, joseph Campbell, Edition Robert laffont, Paris.

- Philipe Sellier : le mythe du Héros, Bordas, Paris 1970.

- Roland BOURNEUF et Real OUELLET : L'univers des Romans, presses Universitaires de France, 4eme Edition, janvier 1985.

Roland Barthes et Autres : Poétique du Récit, Edition du seuil, 1977